١١

جوانب التميُّز والقيادة في شخصيَّة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي

أ. د. قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج
أستاذ محاضر في أصول الدين والعقيدة - جامعة الجزائر
chekhebelhadje@yahoo.fr

ملخَّص:

تحمل شخصيَّة الإمام العالم محمَّد بن عبد الله الخليلي دلالات متعدِّدة الجوانب تجمع بين الرمزيَّة الوطنيَّة، والمرجعيَّة الدينيَّة، والإصلاح الاجتماعيِّ، والعطاء العلميِّ، كما تعني أصالة مجتمع في بُعده الروحيِّ، وهي تشكِّل ما يعرف اليوم صورة للهُويَّة الوطنيَّة للمجتمعات والأمم والشعوب. فترصد هذه الدراسة حياة الإمام، وملامح عصره، وتقف على الأوضاع السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة السائدة حينئذ وتربط ذلك بجهود الإمام الخليلي تأثيرًا فيها وتأثُّرًا بها. وتوصَّل البحث إلى أنَّ الإمام الخليليَّ يعدُّ شخصيَّة عُمانيَّة وطنيَّة، وعَلَمًا بارزًا من أعلامها، يجسِّد أبعاد الهوِّيَّة العربيَّة الإسلاميَّة، باعتبارها أنموذجا للحكم الراشد، الجامع للكلمة، والداعي للوحدة، والمصلح بين الإخوة، والقاضي على الفتن. وخلُص البحث إلى أنَّ صفات التميُّز والقيادة في شخصيَّة الإمام الخليلي تتمثَّل في: قوَّة علاقته بالله تعالى والاستقامة على نهجه، والعمل المتواصل الدؤوب، والجمع بين صفتي العلم والحكمة، وجمع الكلمة والجنوح إلى السلم والصلح، والقوَّة والحزم في نشر الخير ومحاربة الباطل. وجسَّدت دولته العلاقة الوثيقة المطَّردة بين صلاح الراعي وصلاح الرعيَّة، حيث إنَّ الرعيَّة تقتدي براعيها الصالح، فتحبَّه وتتعاون معه، وتقدِّر أعماله، وتطيع أوامره، وتطمئنَّ لعمَّاله، وينتج عن ذلك الخير العميم للبلاد والعباد. وهذا ممَّا أثَّر إيجابيًّا في انتعاش الحياة الاقتصاديَّة، بمحاربة الفساد المالي، والعمل على استتباب الأمن، ونشر العدل. واجتماع الأخلاق والعلم والعمل والحكمة في شخصيَّة الإمام، كان من دعائم حكمه ونجاحه في تسيير دواليب الدولة، ورعاية مصالح بلده.

كلمات مفتاحيَّة: شخصيَّة. قيادة. تميُّز. إمامة. إصلاح. عدل.

مقدِّمة:

إذا ذُكرت شخصيَّة الإمام العالم محمَّد بن عبد الله الخليلي في عُمان فهي تحمل دلالات متعدِّدة الجوانب تجمع بين الرمزيَّة الوطنيَّة، والمرجعيَّة الدينيَّة، والإصلاح الاجتماعيِّ، والعطاء العلميِّ، وتعني أصالة مجتمع في بعده الروحيِّ، وهي تشكِّل ما يُعرف اليوم بصورة الهوية الوطنية للمجتمعات والأمم والشعوب؛ ذلك لما قدَّمته هذه الشخصيَّة الفذَّة من جهود مضنية، مسَّت جوانب الحياة المختلفة، فكانت بحقٍّ الشخصيَّة المتميِّزة القيادية الرائدة التي أبلت بلاء حسنا؛ خدمة لدينها ووطنها وأمَّتها العربيَّة والإسلاميَّة. فقد عاش الإمام محمَّد الخليلي خلال النصف الأوَّل من القرن العشرين، واستطاع أن يقدِّم الكثير لوطنه عُمان، لاسيما في الجوانب السياسيَّة والعلميَّة والاجتماعيَّة، حيث قام بأدوار مهمَّة في مجال الإصلاح الدينيِّ والاجتماعيِّ، ونسج شبكة علاقات رفيعة المستوى، انطلاقا من بلده عُمان في الداخل، وصولا إلى أرجاء العالم الإسلاميِّ.

ترصد هذه الدراسة حياة هذه الشخصيَّة، وتبحث عن جوانب التميُّز والقيادة فيها، وقوفا على الأوضاع التي عاشت فيها، والتحدِّيات التي جابهتها، فتحدِّد ملامح عصرها، وتفهم جهودها وأعمالها ومواقفها فيها، تأثيرًا وتأثُّرًا. وتُبرز الدراسة كذلك الدور الحضاريَّ لهذه الشخصيَّة في صياغة هوِّيَّة عُمان وشعبه الأصيل في بُعديه العربيِّ والإسلاميِّ.

ملامح عصر الإمام الخليلي:

لا شكَّ أنَّ للعصر الذي يوجد في الإنسان أثرًا بالغا على شخصيَّته ومواقفه وأعماله، وأنَّه لا يتسنَّى فهم الكثير من القضايا التي تقع في الحياة البشريَّة إن لم توضع في سياقاتها الزمنيَّة والمكانيَّة. ولعلَّ من أهمِّ جوانب العصر التي ينبغي معرفتها هي أوضاعه السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة.

الأوضاع السياسيَّة:

تميَّزت الحياة السياسيَّة في عُمان بظهور نظام الإمامة، وهو نظام قديم في هذا البلد قدم الإسلام فيه، حيث شهد ظهور أوَّل إمامة سنة ١٣٢هـ، إثر سقوط الدولة الأمويَّة، وكان أوَّل إمام عرفه العُمانيُّون هو الجلندى بن مسعود. ومنذ ذلك

التاريخ الإسلاميِّ المبكِّر وعُمان تشهد قيام إمامات وزوال أخرى، وتشهد -أيضا- تعيين أئمة ومبايعتهم وعزل آخرين أو استخلافهم، بمختلف الأسباب والظروف. إنَّ التاريخ السياسيَّ لعُمان حافل بمثل هذه الأحداث التي عادة ما تكون منعرجات مهمَّة وخطيرة على الشعب العُماني، وتكون كذلك نهايات لعهود ودول وإمامات وقيام أخرى على أنقاضها، أو استمرار على نهجها واستمداد لمسارها.

ويمكن تفسير حرص العُمانيِّين على تولية أئمَّة عليهم بحرصهم على التمسك بنهج النبيِّ ﷺ وخلفائه الراشدين في مسائل الحكم والسياسة، والالتزام بشريعة الله تعالى فيهما. وما ينجرُّ عن ذلك من التزام عامٍّ بتطبيق دين الله تعالى في مجالات الحياة المختلفة والاحتكام إليه. وعلى رأس ذلك الالتزام باختيار إمام المسلمين عن طريق الشورى والمبايعة، واعتبار الكفاءة وتوفُّر الشروط، والقدرة على عزله حال مخالفته لأمر الله تعالى وإجماع المسلمين.

خلال الفترة الأخيرة بايع العُمانيُّون الإمام عزَّان بن قيس البوسعيدي سنة ١٨٦٨م، واستمرَّ على رأس الدولة إلى سنة ١٨٧١م. وبعد وفاته انقطعت الإمامة في عُمان لمدَّة ٤٠ سنة تقريبا، حتَّى جاء الشيخ العالم نور الدين السالمي فدعا لإحياء الإمامة، وسعى جاهدا لإقامتها من جديد، فتحرَّك في اتِّصالات حثيثة مع شيوخ القبائل ووجهاء البلد، ودعاهم إلى تزكية إمام جديد ومبايعته. واتَّفقوا على تعيين الشيخ سالم بن راشد الخروصي إماما عليهم، لكنَّه أبدى رفضًا شديدًا، حتَّى هُدِّد بالقتل إن لم يقبل بالإمامة؛ لأنَّ في ذلك تشتيتا لرأي الأمَّة، وإضعافا لقوَّتها، فقَبِل مرغما، فعُقدت له البيعة في مدينة نزوى سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م[١].

بقي الإمام سالم الخروصي في الحكم مدَّة سبع سنين حتَّى توفِّي شهيدًا، وبعد ثلاثة أيَّام اجتمع أهل الحل والعقد من العلماء والمشايخ والوجهاء فعيَّنوا خَلَفًا له الشيخَ محمَّد بن عبد الله الخليلي إماما على عُمان، وكان ذلك سنة ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م. واستمرَّ في الإمامة إلى حين وفاته سنة ١٩٥٤م ودامت مدَّة إمامته خمسًا وثلاثين سنة[٢]. ولعلَّ أبرز ملامح الوضع السياسي في عصر الإمام الخليلي والعصر

١) شريفي، مصطفى: الشيخ نور الدين السالمي مجدِّد أمة، ومحيى إمامة، ط١، المطبعة العربيَّة، غرداية، دار الخلدونية، الجزائر، نشر جمعية التراث، غرداية، الجزائر، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٥٠- ٥٥.

٢) المرجع نفسه، ص١٤٦.

السابق له هو الصراع الدائر بين أتباع الإمامة في الداخل وأتباع السلطنة على الساحل، وتدخُّل الاحتلال الإنجليزي في ذلك؛ خدمةً لمصالحه، وإبقاءً لنفوذه على منطقة الشرق الأوسط والهند وبلاد أخرى في قارَّتي آسيا وإفريقيا.

أرهق هذا الصراع العُمانيِّين وأدخلهم في اقتتال وافتتان وحروب لا قبل لهم بها، وصعَّب من أوضاعهم المعيشيَّة، ونغَّص عليهم حياتهم، وضيَّق عليه أرزاقهم، وسلب منهم الأمن والعافية. لهذا توجَّهت جهودٌ الخيِّرين في وطن عُمان من علماء ومشايخ وأعيان إلى ضرورة الوصول إلى حلٍّ لهذا الوضع المزري، وإنهاء لهذا الصراع المستشري، بحثا عن الأمن والهناء في البلد. عُقدت عدَّة مفاوضات بين طرفي النزاع: الإمامة والسلطنة، باء بعضها بالفشل، ثمَّ توِّجت في الأخير بالاتفاق التاريخيِّ المعروف بمعاهدة السيب، التي أبرمت في عهد الإمام الخليلي والسلطان سعيد بن تيمور سنة ١٣٣٩هـ الموافق لسنة ١٩٢٠م.

ومن أهم مراحل المفاوضات التي توِّجت بمعاهدة السيب:

في سنة ١٩١٣ انطلقت مفاوضات بين الإمام سالم الخروصي والسلطان فيصل بن تركي من أجل إقرار السلام والأمن بينهما، إلاَّ أنَّ هذه المفاوضات لم تتوَّج بعقد الاتفاق، حيث رفضه أتباع الإمامة بسبب اشتراط السلطان إلغاء القيود المفروضة على تجارة السلاح، وأن يردَّ إلى السلطان حصنيْ بدبد وسمائل اللذين كانا تابعين لنفوذ الإمامة.

وفي شهر يناير من سنة ١٩١٥ هاجم أتباع الإمامة مدينة مسقط التي كانت عاصمة السلطنة بقصد الإطاحة بحكم السلطان فيصل بن تركي، إلاَّ أنَّ المحاولة باءت بالفشل. فكان هذا العمل دافعا قويًّا للسلطان للدخول في مفاوضات جادَّة مع الإمامة لأجل الوصول إلى اتفاق ينهي حالة الصراع والاقتتال. وفي شهر أغسطس سنة ١٩١٥، رفض مندوبو الإمام التوقيع على اتِّفاق ثان بسبب اشتراط انسحاب قوَّات الإمام من منطقة سمائل الإستراتيجية، وفي السنة ذاتها حصلت هجمات متبادلة بين الطرفين.

ولأجل الضغط على الإمامة قرَّرت إدارة السلطنة رفع الرسوم على التمور من ٥٠ في المائة إلى ٢٥ في المئة، ثمَّ إلى ٥٠ في المئة؛ لأنَّ العُمانيِّين كانوا يعتمدون في

معيشتهم واقتصادهم على تجارة تمور بساتينهم وتصديرها إلى الخارج. وبعد ذلك أرسل الاستعمار البريطانيُّ رسالة تهديد شديدة اللهجة إلى حكومة الإمامة بمدينة نزوى يتوعَّدها بالاحتلال الكلِّي لأراضيها إن هي لم تجلس إلى طاولة المفاوضات مع حكومة السلطنة للوصول إلى اتِّفاق بينهما ينهي حال الصراع[١]. وبعد أخذ وردٍّ بين طرفي النزاع الإمامة والسلطنة، وبعد وساطات متعدِّدة من أناس ثقات نزهاء في الطرفين، من علماء ومشايخ وأعيان البلد، تمَّ قبول التفاوض للوصول إلى اتِّفاقية السيب التي احتوت على بنود تخدم الطرفين وتوقف حال الصراع بينهما.

الأوضاع الاجتماعيَّة:

المجتمع العُمانيُّ مجتمعٌ عربيٌّ محافظ على أصالته، ومتمسكٌ بدينه، وله مستوى عال من الأخلاق والقيم ورثها من آبائه وأجداده، وهو مجتمع قبليٌّ، يحتكم إلى الولاء للقبيلة ونصرتها والاعتصام بها، كسائر البلاد العربيَّة عمومًا. إنَّ لهذه التركيبة القبليَّة فوائد كثيرة على الأفراد والمجتمع، من التآزر والتكاتف، ووحدة الصفِّ، لكنَّها في المقابل قد تتسبَّب في حدوث عدَّة صراعات وخصومات وفتن بين القبائل لأسباب مختلفة، على رأسها الصراع على موارد الرزق والأراضي، والصراع على قضايا الشرف والعرض، والصراع على الحكم والولاء[٢].

من جهة أخرى ظهرت في المجتمع العُماني بعض الظواهر الاجتماعيَّة السلبيَّة، السائدة في عموم البلاد العربيَّة بسبب الركود وعدم التجديد ونقص العلم والتوعية، كالميل إلى الشعوذة والسحر، وظهور الانحرافات الخلقيَّة، والعصبيَّات القبليَّة، والأخذ بالثأر والحميَّة الجاهليَّة، وظهور العصابات اللصوصيَّة وقطاع الطرق، وتفشِّي الأمِّيَّة والجهل بين الناس[٣]. هذا هو حال الوضع الاجتماعي عموما في عصر الإمام الخليلي، الذي اجتهد في إصلاحه وتغييره نحو الأحسن ومعالجة سلبيَّاته بما أتاحت له الظروف.

---

١) غباش، حسين عبيد غانم: عُمان، الديمقراطية الإسلاميَّة، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث، ط١، دار الجديد، ١٩٩٧م، ص٢٩٢-٢٩٥.

٢) شريفي، مصطفى: الشيخ نور الدين السالمي مجدِّد أمَّة، ص٦٣-٦٨.

٣) المرجع نفسه، ص٦٩-٧٩.

استطاع الإمام الخليلي بإخلاصه وعزيمته وحكمته وحبِّه لوطنه وشعبه أن يقيم دولة العدل والأمن؛ فاستتبَّت له الأمور، واستقرَّت له الأوضاع عموما، على الرغم من الصعوبات والعراقيل التي وجدها في طريقه. حارب الانحرافات المجاهَر بها، وأقام الحدود على الظلمة والمعتدين في جرائم القتل والعرض والمال، وجَمَعَ الزكاة، وقسم الصدقات، ونظَّم الحياة العامَّة للناس. وحارب مظاهر الشعوذة والدجل وما يسمى بالزار عند العُمانيِّين، ممَّا ينافي الدين الإسلاميَّ في عقيدته وشريعته وأخلاقه.

كان الإمام الخليلي يستشير في إدارة شؤون بلده كوكبة من العلماء والقضاء والمشايخ والحكماء الذين اتَّخذ منهم بطانة صالحة أعانته على القيادة الرشيدة لدولته[1]. أحيى الإمام الخليلي المناسبات الدينيَّة والاجتماعيَّة؛ فشجَّع الفنون الشعبيَّة المعروفة لدى العُمانيِّين، وأحيى المولد النبويَّ الشريف، حيث كان يقرأ فيها بصفة رسميَّة بردة البوصيريِّ وغيرها من المدائح في ذكر خصال المصطفى ﷺ.

وكان يحتفل بالعيدين عيد الفطر وعيد الأضحى بإقامة صلاة العيد جماعة في مصلَّى برج القرن في مدينة نزوى، وإقامة الأفراح بهاتين المناسبتين الدينيَّتين العظيمتين. وشجَّع الزواج المبكِّر، ودعا إليه وساعد من يرغب فيه لأجل الإحصان، فدعا إلى تيسير المهور، والإقلال من نفقات العرس والتجهيز والولائم؛ حتَّى يتزوَّج جميع الشباب، ويقضى على الفواحش والآثام. استطاع الإمام بذلك أن يرسي دعائم المجتمع الإسلاميِّ القائم على المحبَّة والأخوَّة والتعاون والتكافل ورصِّ الصفوف ووحدة الكلمة.

الأوضاع الاقتصاديَّة:

يعتمد العُمانيُّون في معيشتهم على ما تنتجه أراضيهم من مختلف الثمار والمنتوجات الفلاحيَّة، وعلى رأسها تمور نخيلهم. وكانوا يعتمدون -كذلك- على صيد الأسماك من شواطئهم الشاسعة الزاخرة؛ لهذا فإنَّ اقتصادهم قائم على تجارة التصدير والاستيراد مع البلدان المحيطة بهم.

---

١) الشكيلي، إبراهيم بن محمَّد: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وأثرها في نشر العلم، ط١، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م، د. ط، ص٣٠- ١٠٦.

وأهمُّ المراكز التجاريَّة في عُمان هي مسقط ومطرح ونزوى وسمائل وبني بوحسن وعبري. تتمثَّل أهمُّ ثرواتهم التي يصدِّرونها في التمور والأسماك بمختلف أنواعها، وكذلك في الفواكه واللآلئ، وفي المقابل يستوردون من خارج بلادهم السكَّر والأرز والمنسوجات وخيوط الغزل. وكان العُمانيُّون يشتغلون بحياكة وغزل مختلف الألبسة التي يحتاجون إليها ويرتديها الرجال والنساء والأطفال، حيث كانت المرأة العُمانيَّة تقوم بدور مهمٍّ في الحياكة والغزل في بيتها. ويشتغلون -أيضا -في صناعة مختلف الآلات الحديدية ومختلف الأسلحة التقليديَّة، من سيوف ورماح وخناجر وبنادق ومدافع، ويتبادلون تجارة هذه السلع مع مختلف البلاد المجاورة لهم في الجزيرة العربيَّة، والبعيدة عنهم كالهند وزنجبار وسواحل شرق إفريقيا[١].

مع هذا التنوُّع والثراء في الاقتصاد العُماني إلاَّ أنَّ التجارة والمعاملات في عصر الإمام الخليلي وما قبله شهدت نوعا من الركود والانكماش بسبب أحداث الحرب العالميَّة الأولى ثمَّ الثانية، وبسبب الصراعات الداخليَّة، وكذلك بسبب المنافسة الشديدة مع الدول الكبرى وعلى رأسها الهند[٢]. وقد بذل الإمام الخليليُّ في عهده جهودا مضنية لأجل تحسين الجانب الاقتصاديِّ للشعب العُمانيِّ، حيث شهدت عُمان استقرارًا ورخاءً وازدهارًا معيشيًّا لافتًا، لاسيما بعد إبرام معاهدة السيب سنة ١٩٢٠م، حيث خفتت الصراعات القبليَّة، وتوقَّفت الحروب والفتن، وأمن الناس على أهلهم وأموالهم وأعراضهم، ونعموا بالحياة الآمنة المستقرَّة وأحسُّوا بالعدل، ممَّا جعلهم يندفعون إلى العمل والنشاط وعمارة الأرض، واستخراج خيراتها وكنوزها، وأحبُّوا إمامهم وتعاونوا معه في كلِّ ما فيه الخير والفلاح للشعب العُماني.

وكانت موارد الدولة أساسا متمثِّلة فيما يُجمع من أموال الزكاة التي كان يخرجها كلُّ الأغنياء والقادرون عليها، وتصبُّ في بيت مال المسلمين، وكانت للدولة موارد من الأوقاف التابعة لها. وكانت هذه الأموال تنفق على وظائف الدولة ومسؤولياتها الإداريَّة، وعلى الجند والعسكر المكلَّفين بحماية حمى الوطن والسهر على أمن الناس وحرماتهم.

١) شريفي، مصطفى: الشيخ نور الدين السالمي مجدِّد أمَّة، ص٥٦ - ٦٣.
٢) الشكيلي، إبراهيم: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، ص٣٠-١٠٦.

الحياة العامَّة للإمام الخليلي:

عاش الإمام الخليلي بمحيط أسريٍّ وعائليٍّ مفعم بحبِّ العلم والانشغال به والسعي لتحصيله والحثِّ عليه، ممَّا جعله يتفرَّغ -منذ نعومة أظافره- لتحصيل العلم، ويحرص عليه، حيث تعلَّم مفاتيح العلوم وأسسها الأولى في حجر والده عبد الله وعمِّه أحمد الفقيهين الأديبين الورعين. ثمَّ تعلَّم النحو وبعض فنون اللغة العربيَّة على يد الشيخ محمَّد بن عامر الطيواني.

تلقَّى الإمام الخليلي مبادئ العلوم العربيَّة والدينيَّة في وقت مبكِّر من حياته، وواظب على حضور مجالس العلم والعلماء في حضرة والده وعمه. بعد ذلك انتقل إلى محافظة الشرقيَّة لمواصلة دراسته والتعمُّق في مختلف العلوم الشَّرعيَّة، حيث التحق بمعهد الإمام نور الدين السالمي، فدرس على يديه علوم التفسير والحديث وأصول الدين وأصول الفقه، ومكث في هذه المدرسة بين يدي هذا العالم الجليل حتَّى نبغ في فنون العلم، وأصبح عالما من العلماء وعَلَمًا من الأعلام[1]. عُرف الإمام السالميُّ بقوَّة شخصيَّته في عمقها العلميِّ، وصرامتها في الالتزام بشرع الله تعالى، وقدرتها على قيادة الأمَّة، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذه الجوانب الثلاثة قد استطاع أن يغرسها ويمكِّنها في نفسيَّة الإمام الخليليِّ لتظهر في مساره مستقبلا. ومن شيوخه كذلك: الشيخ عامر بن خميس المالكي، والشيخ المعلِّم حامد بن ناصر بن وجد الشكيلي.

واصل الإمام الخليلي تكوينه بعد ذلك اعتمادا على نفسه وبطريقة عصاميَّة، من خلال انكبابه على مطالعة الكتب والمصنَّفات، ومجالسة العلماء والمشايخ والفقهاء، حيث عمَّق معارفه ورسَّخها في مختلف فنون العلوم الشَّرعيَّة والعربيَّة؛ ممَّا مكَّنه أن يجلس في مجلس الإفتاء، ويجتهد في المسائل المعروضة عليه، ويفتي في النوازل الحادثة في زمانه[2].

---

١) شريفي، مصطفى: الشيخ نور الدين السالمي مجدِّد أمَّة، ص١٤٤- ١٤٦.

٢) الخليلي، محمَّد بن أحمد: الإمام محمَّد بن عبد الله الخليليُّ ومنهجه الفقهيُّ، مذكِّرة تخرُّج بمعهد القضاء الشرعيِّ بمسقط، سلطنة عُمان، السنة الجامعيَّة: ٢٠٠٢-٢٠٠٣م، ص٢٥.

جهوده في التعليم:

إنَّ انشغال الإمام الخليليِّ بشؤون الحكم والسياسة وتسيير دواليب دولته لم يبعده عن حلق العلم والعناية بنشر العلم وتعليم الأجيال؛ ذلك إيمانا منه بأنَّ هذه العلوم تشكِّل حصانة للأمَّة ودعامة لها في حفظ كيانها، والمضيِّ نحو مستقبلها.

هذا ما جعله يفتتح مدرسةً لتعليم الذكور، وأخرى لتعليم البنات والنساء، ويشرف عليه مباشرة ويساهم بالتعليم فيه، وقد درس على يديه عدد كبير من الطلبة أصبح بعضهم مشايخ وعلماء فيما بعد، منهم: الشيخ سيف بن محمَّد الفارسي، والشيخ خالد بن مهنَّا البطَّاشي، والقاضي الشيخ شماس بن محمَّد البطَّاشي، والشيخ جابر بن علي المسكري، والشيخ سعيد بن حمد الحارثي، والشيخ سالم ابن قصور الراشدي، والشيخ يحيى بن سفيان الراشدي، والشيخ محمَّد بن سالم، والشيخ ناصر بن سالم، والشيخ حمود بن عبد الله الراشدي، والشيخ سعود بن سليمان الكندي، والشيخ موسى بن سالم الرواحي[١].

الصفات الخَلقيَّة والخُلُقيَّة:

وهب الله تعالى الإمام الخليليَّ صفات خلقيَّة حسنة، وكان يعدُّه لمنصب الإمامة، وما تتطلَّبه هذه المسؤوليَّة من صفات وخصال. فمن أهمِّ صفاته الخَلقيَّة أنَّه كان أبيض اللون، نحيف البنية، طويل القامة، واسع العينين، متوسِّط حجم اللحية، يمشي بخطوات متسارعة، قاصدا حاجته، في سكينة ووقار[٢]. شهد كلُّ من عاشر الإمام الخليليَّ بعلوِّ كعبه في جانب الأخلاق؛ حتَّى أرهق من أراد الاقتداء به، مع ما كان عليه من مراتب الملك والعلم والجاه، والتي تكون أحيانا مفسدة للمكارم والطباع. ممَّا عُرف عن أخلاقه ما يأتي:

- الفراسة؛ فهو بنور الله تعالى يبصر، وذُكر أنَّه قد يفاجئ القاصد لمناجاته بذكر حاجته التي جاء من أجلها قبل أن يبوح بها.
- الحلم والأناة، فلا يُرى غاضبا إلاَّ إذا انتُهكت محارم الله تعالى.

١) الشكيلي، إبراهيم: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، ص٣٠-١٠٦.
٢) السالمي، محمَّد الشيبة: نهضة الأعيان بحرِّيَّة عُمان، ص٢٨٨.

- رحابة الصدر، وتحمُّل الأذى، والتجاوز عن الظالم، والعفو والصفح عن رعيته وعن إخوانه ممَّن أساء إليه، أو أخطأ في حقِّه، فكان يتقبَّل أعذارهم، وينزل عنهم حاجاتهم، ويُنصت لمشورتهم، ويستمع لنصحهم[١].
- إطالة التفكير، والتزام السكوت في أدب جمٍّ، وعدم الكلام إلاَّ بعلم فيما ينفع.
- السخاء واليد العليا الممدودة لكلِّ من سأله، فقد كان غنيًّا ورث ثروة هائلة من آبائه وعائلته، فسخرها وأنفقها بسخاء على مصالح المسلمين وعلى المحتاجين من رعيَّته[٢].
- البساطة في العيش والتواضع، وعدم التكبُّر على الخلق، وفتح بابه لعموم الناس دون استثناء ودون أوقات محدَّدة، وكان يمازح الناس، ويقصُّ عليهم القصص المفيدة، ويعلِّمهم الآداب، ويَعظهم في أمور دينهم ودنياهم.
- قضاء جلِّ أوقات نهاره في خدمة مصالح الناس، وقضاء شطر من ليله في العبادة والقيام والذكر وتلاوة القرآن الكريم.

استطاع الإمام الخليلي بهذه الخصال التي حباه الله بها أن يُحظى بحبِّ شعبه، وطاعتهم له، وانقيادهم لإمامته دون جبر أو قهر[٣].

البيعة وتولِّي الإمامة:

كانت بيعة الإمام الخليليِّ في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٨هـ/ ٣٠ يوليو ١٩٢٠م، وامتدَّت لمدَّة خمس وثلاثين سنة.

اجتمع العلماء وأعيان القبائل وأهل الحلِّ والعقد بجامع نزوى وأجمعوا على مبايعته، وذلك بعد وفاة الإمام سالم بن راشد الخروصي بثلاثة أيَّام. وقد رفض الإمام الخليليُّ بادئ الأمر قبول منصب الإمام، لكنَّ إصرار وجهاء القوم ورؤساء القبائل جعله يرضخ للأمر ويتولَّى شؤون المسلمين.

---

١) مركز دراسات الوحدة العربيَّة: موسوعة عُمان الوثائق السرِّيَّة، إعداد وترجمة: محمَّد بن عبد الله الحارثي، مج٣، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م، ص٤٩ - ٥٣.

٢) الرواحي، سالم: الدعوة الإسلاميَّة في عُمان في القرن الرابع عشر الهجري، ص١٢٢- ١٢٦.

٣) السالمي محمَّد الشيبة: نهضة الأعيان بحرِّيَّة عُمان، ص٣٢٤.

بايع الإمامَ الخليليَّ بالإمامة جمعٌ غفير من العلماء والوجهاء، ووضعوا الثقة المطلقة فيه، ولم يأخذوا عليه شرطًا أو عهدًا، ومن أبرز هؤلاء:

رئيس القضاة الشيخ أبو مالك عامر بن خميس المالكي، وهو أحد العاقدين بالإمامة على الإمام سالم بن راشد الخروصي، ثمَّ الشيخ العلاَّمة ماجد بن خميس العبري، وقد أدرك هذا الشيخ الإمامين عزَّان بن قيس وسالم بن راشد وبايعهم وعمل لهم، ثمَّ الشيخ أبا زيد عبد الله بن محمَّد الريامي، وهو أحد العاقدين على الإمام سالم بن راشد، ثمَّ الشيخ الأمير عيسى بن صالح الحارثي، ثمَّ الشيخ محمَّد بن سالم الرقيشي، ثمَّ الشيخ أبا عليٍّ سيف بن عليٍّ المسكري، ثمَّ الشيخ حمدان بن سليمان النبهاني، ثمَّ الشيخ مهنَّا بن حمد العبري، ثمَّ الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري. ثمَّ بايعه جمع من بقيَّة العلماء والقضاة ورؤساء القبائل ثمَّ عامَّة الناس.

وبعد أن انتهت البيعة قام الشيخ العلَّامة أبو مالك فخطب في الناس خطبة العقد، ثمَّ قام أبو زيد عبد الله بن محمَّد الريامي فخطب في العسكر، وبعد انتهاء الخطبتين انقضى مجلس البيعة، فدخل الإمام دار الإمامة لمزاولة مهامِّه وبداية حكمه[١].

الأعمال والمنجزات:

كانت حياة الإمام الخليليِّ حافلة بجليل الأعمال وعظيم الخصال، ولا يتسنَّى حصر كلِّ أعماله، ولكن يمكن الإشارة إلى ما برز منها فيما يأتي:

- إنشاؤه مدرسة وأشرف عليها بنفسه، وأسهم في التدريس بها مع كوكبة من العلماء، منهم الشيخ حامد بن ناصر الشكيلي، والشيخ حمود بن زاهر الكندي، والشيخ مرزوق بن محمَّد المنذري[٢].
- إنشاؤه في حصن قلعة نزوى مدرسة فاطمة لتعليم النساء والبنات أمور الدين، وتحفيظهنَّ القرآن الكريم.

١) المصدر نفسه، ص٣٣٨- ٣٣٩.

٢) الشكيلي، إبراهيم: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، ص١٠٧-١٥٢.

- تولِّي إدارة شؤون قبيلته بني رواحة قبل مبايعته بالإمامة.
- توقيع اتِّفاقية السيب بين الإمامة والسلطنة بتاريخ ١٢ محرَّم ١٣٣٩هـ/ ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠م، والتي تعدُّ إنجازا عظيما توقَّف بموجبها الصراع، وأرست دعائم التعايش والسلم والأمن بين أبناء الشعب العُماني، وتعهَّد شيوخ القبائل بتوقيف الحروب والغارات على المناطق الساحليَّة.
- بسط الأمن وإحلال السلم وإقرار العدل في دولته بين كلِّ الناس، وفضُّ الخصومات والقضاء على الفتن والحروب، وملاحقة المفسدين واللصوص وقطَّاع الطرق، حتَّى استتبَّ الأمن، وعمَّت العافية، وحلَّت الطمأنينة في أرجاء عُمان.
- استرداد منطقة الرستاق إلى حضن إمامته، بعد أن استولى عليها البغاة وقطَّاع الطرق والخارجون عن النظام، وذلك باستنهاض القبائل للدفاع عنها، ومناصرة شيخها ناصر بن راشد الخروصي.
- ربط علاقات داخليَّة وخارجيَّة مهمَّة، سياسيَّة وعلميَّة واجتماعيَّة، من ذلك علاقته ومراسلته لملك السعوديَّة عبد العزيز آل سعود، وللأمير عيسى بن صالح الحارثي، وللعالم الجزائري قطب الأئمَّة الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش.
- اجتهاداته الفقهيَّة وآراؤه في القضايا العلميَّة والنوازل الحادثة في عهده، التي تكشف عن فكر ثاقب وعقل رصين وآراء سديدة، ورؤية عميقة، وقد جُمعت في كتاب سمِّي: "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل"، طبع سنة ١٩٦٥م[١].

صفات التميز والقيادة في شخصيَّة الإمام الخليلي:

من خلال الوقوف المتأنِّي مع حياة الإمام الخليلي، وتتبُّع مراحلها المختلفة، من النشأة إلى الوفاة، ومن خلال معرفة الأوضاع السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة التي عاش في ظلِّها إمامنا الخليليُّ، نستطيع أن نخلص إلى تحديد جوانب التميُّز والقيادة في شخصيَّته.

١) المرجع نفسه، ص٣٠-١٠٦.

هذه الصفات التي جعلت منه حاكمًا وقائدًا متميزًا ترك بصمته الإيجابيَّة العميقة في شعب عُمان، وفي مناحي الحياة العامَّة في وطنه، وأصبح يمثِّل رمز الهوِّيَّة الوطنيَّة، وأصالة تاريخه وأمجاده، ولا يمكن تجاوز جهوده عند الحديث عن عُمان، حكمًا ووطنًا وشعبًا. وأصبحت هذه الشخصيَّة جزءًا من الشخصيَّة العُمانيَّة ومن أصالة تاريخه وأمجاده التي لا يمكن أن يغفل عنها عند الحديث عن هذا الوطن. حيث يمكن تحديد ذلك فيما يأتي:

قوَّة العلاقة مع الله تعالى والاستقامة على نهجه:

إنَّ ما يظهر بجلاء كملمح بارز في شخصيَّة الإمام الخليلي إخلاص العبوديَّة لله تعالى وقوَّة العلاقة به والاستقامة على نهجه ووثوق الصلة به، وذلك على مستوى العبادة الشخصيَّة، وعلى مستوى العبادة المعاملاتيَّة في تجسيد العلاقة مع الناس على نهج المصطفى ﷺ وعلى نهج صحابته الكرام -رضي الله عنهم أجمعين.

عُرف عن الإمام الخليلي الإخلاص لله في أعماله، وكثرة الصلاة وطول القيام وتلاوة القرآن وتدبُّره، فكان يقضي الساعات الطوال من ليله قائمًا عابدًا ساجدًا راكعًا، وكان لا يعرف النوم إلاَّ في شطر من الليل بقدر ما يريح جسده ليجدِّد الطاعة والعبادة والعمل به. وصف عبادته أحدُ المقرَّبين منه وخاصَّته، وهو الشيخ موسى بن سالم الرواحي فقال: "أمَّا عن عبادته فقد كان مضرب المثل، والناسك المتبتِّل، وباعتباري أنِّي كنت من جملة خاصَّته فكثيرا ما كنت أدخل عليه في غرفته في الأوقات الحرجة، وذلك عندما تدعو الضرورة لإحضاره وإخباره أنَّ حادثا ما وقع أو جاء أحد ما لمقابلته في أمر لا بدَّ منه، فأجده قائما يصلِّي، وكان يجهر بعض الشيء بالقرآن الكريم في صلاته"[١]. وتصديقا لهذه العلاقة الخالصة القويَّة مع الله تعالى، فقد أكرمه الله تعالى بالكرامات التي كانت تروى عنه ويشاهدها الناس رأي العين، كما أكرم بفراسة المسلم، فكأنَّه بنور الله تعالى يبصر. ومن ذلك أنَّه يحدث الداخل عليه لعرض حاجة من حاجاته بما يريد قبل أن يخبره عنها[٢].

١) المرجع نفسه، ص٧٠.
٢) المرجع نفسه، ص٨٤.

على الرغم من الحياة الرغدة والوافرة التي عاشها الإمام بين أحضان أسرته وعائلته الثريَّة قبل توليه الإمامة؛ حيث كان يأكل أحسن المأكل، ويلبس أفخر اللباس، إلاَّ أنَّه بعد تولِّيه الإمامة استطاع أن يغيِّر بطواعيَّة وعزيمة وقناعة منحى حياته ومجرى أيَّامه؛ فاتَّجه نحو الزهد والتقشُّف والاكتفاء بما تيسَّر وبسط من المعيشة على مستوى المأكل والمشرب والملبس، وتخلَّى عن التمتُّع بزينة الحياة المتاحة له والحلال عليه، واكتفى بالقدر اللازم منها فقط. وأصبح يكثر من صوم التطوُّع، ويفطر على التمر والحليب والسمك.

وقد سبَّب له هذا التضييق على نفسه تدهور حالته الصحِّيَّة وضعف بصره؛ حتَّى ابتلاه الله بفقده له لمدَّة خمسة أشهر، تطلَّب الأمر استدعاء طبيب بريطاني من مدينة مسقط؛ لعلاجه فأبصر من جديد من عين واحدة بفضل الله تعالى وقدرته. وتعبيرًا عن هذا التحوُّل أقدم الإمام الخليلي على بيع الكثير من ممتلكاته وأصول ثروته التي حصل عليها من أسرته وعائلته، ثمَّ صرفها على مصالح المسلمين ووجَّهها إلى خدمة المحتاجين والضعفاء والفقراء والمساكين من أبناء رعيَّته[1].

إن رجلاً إمامًا على أمَّته وقائدًا لها هذه هي حاله في قوَّة علاقة مع خالقه والاستقامة على نهجه، وهذه هي حاله في محاسبة نفسه وإيثار رعيَّته عليها، وصرف ممتلكاته في سبيلها، بلا ريب سيكون له الأثر الإيجابي العميم على صلاح رعيَّته والاقتداء به في مثل هذه الخصال الراقية الرفيعة. كما أنَّ رجلا على رأس أمَّة يكون صارمًا مع نفسه في محاسبها إلى حدِّ التقشُّف وإرهاق جسده، بل تسخير ثروته لخدمة شعبه، فإنَّه بلا ريب سيكون أمينًا على مقدَّرات شعبه، وسيكون حريصا على وضعها في محلِّها، وعادلا في تقسيمها على مستحقِّيها.

العمل المتواصل الدؤوب:

من الصفات التي امتاز بها الإمام الخليلي، وبرز بها تفانيه في خدمة أمَّته وأبناء وطنه وقضاء جلِّ أوقاته في رعاية مصالح شعبه، وإنَّ ذلك ليظهر جليًّا من خلال معرفة البرنامج اليومي للإمام، وكيف كان يقضي وقته ويقسِّمه بين مهامِّه وانشغالاته، فهو يصل ليله بنهاره لخدمة المصالح العامَّة للناس. عاش

١) الرواحي، سالم: الدعوة الإسلاميَّة في عُمان في القرن الرابع عشر الهجري، ص١٢٢-١٢٦.

الإمام الخليلي في فترة إمامته حياة ملؤها جليل الأعمال، وعظيم الفعال، في تسيير دواليب حكمه، وترشيد سياسة دولته بما يعود على الناس بالنفع والصلاح والفلاح.

كانت مهامُّه -وهو على رأس إمامة عُمان -متنوِّعة وزاخرة بما يقتضيه مقام الإمامة والمسؤوليَّات المنوطة بها، فقد جمع فيها بين إدارة شؤون الدولة، وقضاء مصالح المسلمين، وتفقُّد أحوال الرعيَّة، وتعليم الناس، وعقد الجلسات واللقاءات مع الوفود والجماعات التي تقصده لمختلف الأغراض والحاجات، والبروز لرعيَّته لسماع انشغالاتهم مباشرة. وكان بالإمكان لأيِّ شخص مهما كان أن يصل إلى مجلس الإمام ويدخل عليه، بدون أيِّ حواجب أو تعقيد أو عراقيل[١]. وصف الشيخ محمَّد الشيبة السالمي صاحب كتاب نهضة الأعيان بحرِّيَّة عُمان النشاط اليومي للإمام وأهم مهامه بما يأتي:

"يقيم الإمام بحصن نزوى، واتَّخذه مقرًّا له، وفيه يستقبل الزوار والوفود، ويشرف على أحوال الدولة وشؤون البلاد، وينهض في الثلث الأخير من الليل، بل لا يهدأ الليل إلاَّ قليلا حتَّى إذا حضرت صلاة الفجر صلَّى بالناس جماعة، فيقعد في مجلسه ذلك لتلاوة القرآن العظيم، ويقعد من صلَّى بالجماعة عنده حتَّى تطلع الشمس، ثمَّ يؤتى بالفطور وهو الرطب في أوانه، أو التمر والقهوة البنِّيَّة، فيلبث بعد ذلك نحوًا من ساعة ثمَّ يدخل مسكنه فيغيِّر لباسه ويصلِّي ما شاء الله، ثمَّ يخرج للناس فيقعد في مجلسه، ويُؤذَن للخاصَّة والعامَّة، غير محتجب ولا ممنوع، فبابه مفتوح للضيوف والمظلوم، وماله مبذول للسائل والرافد والمحروم، وسيفه مسلول للجائر الغشوم. تكون الأحكام الشَّرعيَّة بحضرته أكثر ما يفصلها القاضي بعد اطِّلاعه عليها، أمَّا أحكام الحدود فيتولَّى فصلها بنفسه بعد مشورة العلماء لِمَا فيها من الخطر عند الله وللتنقيح في آراء العلماء والقضاة، فيبقى في مجلسه ذلك إلى حضور صلاة الظهر، وبعض الأحيان يقوم قبيل الظهر بمقدار نصف ساعة - خصوصًا وقت الصيف - للاستراحة والقيلولة، ثمَّ يخرج فيصلِّي بالناس إمَّا في الجامع أو في غرفة الصلاة بالحصن، وبعد الظهر يبرز للناس خارج الحصن إلى

١) جورج ونس: عُمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسيِّ، مكتبة الثقافة الدينيَّة، ط١، القاهرة، مصر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص١٠٥-١١٠.

حضور صلاة العصر فيصلّي بهم في الجامع، ثمَّ يدخل الحصن فيأمر بإخراج الطعام للناس والأضياف على قدر مراتبهم، ثمَّ يحضر لصلاة المغرب بغرفة الصلاة فيصلّي بالناس، ويقعد للمذاكرة والمباحثة في العلوم فيحضره جماعة من العلماء والطلبة، وقد أفرد هذا الوقت لهم حتَّى تكون الساعة الثامنة فيصلّي بهم العشاء الآخرة، فيدخل محلَّه الخصوصي، فيحيي ليلته قيامًا وقراءةً لا ينام إلاَّ خيالاً"[1].

نستطيع من هذا النص أن نستخرج أهمَّ فقرات البرنامج اليومي لمهامِّ الإمام وأعماله فيما يأتي:

- الاستيقاظ من النوم في الثلث الأخير من الليل للعبادة والذكر والصلاة.
- صلاة الفجر بالناس جماعة في المسجد.
- البقاء في المسجد للذكر حتَّى صلاة الضحى.
- تناول فطور الصباح.
- انعقاد مجلس الإمام بحضور أهل الحلِّ والعقد والنظر في شؤون الأمَّة والرعيَّة.
- استقبال الضيوف والوفود وأصحاب القضايا والمصالح إلى وقت صلاة الظهر.
- صلاة الظهر والغداء والاستراحة.
- صلاة العصر والخروج إلى البرزة والجواب على انشغالات الناس.
- صلاة المغرب والجلوس لحلقة العلم وتعليم الطلبة.
- صلاة العشاء ثمَّ الانصراف إلى الأهل والراحة والنوم لجزء من الليل.

لا يلاحظ في البرنامج اليومي للإمام أيُّ فراغ أو تضييع للأوقات أو جنوح إلى

١) السالمي، محمَّد الشيبة: نهضة الأعيان بحرِّيَّة عُمان، ص٣٤٠.

الراحة، فما بالك باللهو أو اللعب أو الانغماس في الملذَّات والشهوات، كما هو عليه حال بعض الحكَّام والأمراء. بل إنَّ هذا البرنامج المكثَّف بالأعمال كان على حساب صحَّة الإمام وراحة جسده الضروريَّة، وعلى حساب حياته الخاصَّة إنسانًا وزوجًا وربَّ أسرة.

إنَّ رجلا بهذه الهمَّة العالية والإرادة العظيمة والنشاط المتدفِّق يكون على رأس أمَّة يسوسها وشعب يحكمه وفق شريعة الله تعالى وسيرة المصطفى ﷺ سيكون بلا شكٍّ قائدها وسائقها إلى برِّ الأمان وشاطئ الفلاح، وبلا شكٍّ سيكثر خيره ويقلُّ شرُّه، وينفع الله تعالى به البلاد والعباد.

الجمع بين صفتي العلم والحكمة:

منَّ الله تعالى على الإمام الخليلي أن يسَّر له الظروف الاجتماعيَّة ليتلقَّى تعليمًا متكاملاً رصينًا لمختلف العلوم الشَّرعيَّة والعلوم العربيَّة والعلوم الخادمة لهما، وكان ذلك على يد مشايخ فضلاء وعلماء أجلاَّء، وقد استطاع هؤلاء الأفاضل أن يصقلوا شخصيَّة الإمام الخليلي في بعدها المعرفي، وأن يُعِدُّوه لتحمُّل مسؤوليَّة إمامة أمَّة، وقيادة شعب، وإدارة وطن لفترة معتبرة من الزمن.

لعلَّ أبرز هؤلاء العلماء وأكثرهم تأثيرا في الإمام ونهلاً من علمه هو الشيخ العالم نور الدين السالمي، الذي التحق بمدرسته في محافظة الشرقيَّة، وتفرَّغ فيها مدَّة من الزمن لتحصيل العلوم الشَّرعيَّة بمختلف فنونها[١]. وتأثَّر بشخصيَّته الفذَّة الحازمة في الالتزام بشرع الله تعالى، والصارمة في قول الحقِّ ومحاربة الباطل، دون أن تخشى في ذلك لومة لائم، والساعية دوما إلى إصلاح حال الأمَّة والرفع من شأنها في خدمة الوطن والصالح العامِّ. لقد مكَّنته هذه الخبرة وهذا التحصيل المعرفيُّ أن يصبح أحد المراجع العلميَّة البارزة للفقه والفتوى في عهده ببلده عُمان، وأن يقصده الناس ويعرضون عليه مسائلهم وقضاياهم طالبين منه الإجابة والحلَّ والنصح.

برز الإمام الخليلي مفتيا، وكانت له الكثير من الآراء الاجتهاديَّة التي تفرَّد بها،

١) الشكيلي، إبراهيم: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، ص٨٧- ٩٨.

أو وافق فيها بعض الفقهاء السابقين له، وخالف غيرهم فيها، وكان يرجِّح بين الأقوال داخل المدرسة الفقهيَّة الإباضيَّة، ثمَّ يجتهد خارج هذه المدرسة في دائرة المذاهب الإسلاميَّة الرحبة، فيوافق ذلك المذهب في هذه المسألة، ويخالف آخر في مسألة أخرى، وهذا ينمُّ عن تفتُّحه وسعة أفقه وتحرُّر فكره، وعدم تعصُّبه لمذهب دون المذاهب الإسلاميَّة الأخرى[1].

لعلَّ هذا الأمر يتجلَّى بوضوح من خلال فتاواه الموجودة ومراسلاته، وما تتضمَّنه من اجتهادات ورؤى عميقة لمسائل شرعيَّة في أبواب الفقه المختلفة. كان فيه العالم الأمين والمجتهد المتحرِّر. وقد جمعت أبرز هذه الاجتهادات والآراء الفقهيَّة فيما يأتي:

- أفتى بصلاة التراويح ثمان ركعات جماعة، وصلاة ركعتين راتبة العشاء قبلهنَّ فرادى.
- أفتى لمن أفسد رمضان متعمِّدًا بأن يخرج الكفَّارة، وأن يعيد صيام ما أفسد فقط، لا ما مضى خلافًا لجمهور الإباضيَّة.
- أفتى بصلاة ركعتين بعد صلاة الجمعة في المسجد نافلة، حيث كانت لا تصلَّى.
- لا يرى بأسًا بالصلاة على الصوف، ولم ير للمانع حجَّة إلاَّ الاستدلال بمفهوم اللقب.
- يرى أنَّ المولى منها إذا خرجت عن زوجها بتمام مدَّة الإيلاء فعليها عدَّة الطلاق ولا يكفيها مضيُّ تلك المدَّة عن العدَّة.
- يرى أنَّ من كان ماله عبيدًا فأعتقهم في مرضه أو أوصى بعتقهم كلِّهم فيعتق منهم الثلث بالقرعة ويسترقُّ الباقون، عملاً بالحديث الوارد في ذلك ويدفع في صدر القياس.
- يرى أنَّ من سافر عن زوجته وأطال الغيبة وخافت العنت، ورَفَعَت إلى الحاكم أمرها، له أن يطلِّقها دفعًا لضررها؛ لأنَّ الشارع راعى ذلك، وجعل للنساء على

١) المرجع نفسه، ص٨٧- ٩٨.

الرجال حقًّا غير الإنفاق، ومن ذلك حقُّ العشرة، ولكن لا يطلقها الحاكم إلاَّ بعد الاحتجاج على الزوج إن كانت الحجَّة تناله.

- يأخذ بمذهب زيد بن ثابت في ميراث الغرقى والهدمى، وأن لا يورث هالك من هالك.
- يرى أن لا فرق بين الغائب والمفقود، وأنَّ مدَّتهما واحدة أربع سنين، محتجًّا بالقضيَّة الواقعة في عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.
- حمل ما سقي بأجر على ما سقي بالنهر في النصاب وإخراج الزكاة، لأنَّه حلَّ محلَّ الأجر الآلات البخاريَّة الحديثة التي تضخُّ المياه للزروع من باطن الأرض.
- أفتى لمن باع نخلاً وقد أُبِّرت فثمرتها للبائع، إلاَّ أن يشترطها المشتري، ويرى من فروع هذه المسألة أنَّ من اختار ماله وقد أبَّره المشتري فالثمرة له ولو لم تدرك.
- أفتى بتحريم ربا الفضل ولو كان ذلك يدًا بيد.
- يرى أنَّ من ابتاع سلعة ثمَّ أفلس فوجد المشتري سلعته بعينها فهو أحقُّ بها من سائر الغرماء عملاً بحديث الربيع.
- حكم بالشفعة في القياض ولو كان أصلاً بأصل، وعلى الشفيع ثمن ما دفعه ذو شفعته في مقابلها.
- لا يرى الكلام والسؤال ونحوه من الشفيع مبطلاً للشفعة.
- يرى الإسقاط بالجوائح السماويَّة إذا بيعت الثمرة بعد الحراك عملاً بحديث رواه مسلم أمر بوضع الجوائح.
- لا يرى ردَّ اليمين على المدَّعي إلاَّ أن يقبل أن يحلف على حقِّه جمعًا بين الأحاديث الواردة في الموضوع[١].

من جهة أخرى فإنَّ الله تعالى وهب الإمام الخليليَّ عقلاً راجحًا ونظرًا عميقًا،

١) الخليلي، محمَّد: الإمام محمَّد بن عبد الله الخليليُّ ومنهجه الفقهيُّ، ص٢٥ - ٢٩.

وتدبيرًا رشيدًا تحوَّلت إلى حكمة بالغة، ورأي سديد في المجالات التي يتولَّى الفصل فيها وتدبير شؤونها[1].

لقد مكَّنه هذان الجانبان البارزان -المعرفة الشَّرعيَّة ورجاحة العقل -من القدرة على التحكُّم في تسيير دواليب الحكم التي تحتاج إلى هذه القدرات والمؤهِّلات.

سخَّر الإمام الخليلي هذه المعارف وهذه والمواهب الجبلِّيَّة في خدمة وطنه عُمان والنصح لشعبه؛ فقادهم قيادة رشيدة، وحافظ لهم على دينهم وهوِّيتهم، وحارب الباطل والانحرافات في بعض أفرادهم، ونصر المظلوم والضعيف والمسكين، وعقد الصلح بين القبائل ونشر السلم وقضى على الفتن، وأرسى دعائم الأمن والاستقرار في أرجاء وطنه.

جمع الكلمة والجنوح إلى السلم والصلح:

من الملامح البارزة في شخصيَّة الإمام الخليلي التي تعدُّ سمة متميِّزة وقياديَّة فيه، كونه شخصيَّة جامعة للصفِّ ونابذة للافتراق، محبَّة للسلم وكارهة للنزاع، متَّسمة بالحلم ومبغضة للغضب، وجانحة إلى الصلح ومبتعدة عن الخلاف والشقاق.

هذا ما يظهر جليًّا في الكثير من المواقف والأعمال التي قام بها الإمام الخليلي في فترة حكمه لعُمان، فالرجل في الكثير من الأحيان كان يتنازل عن حقِّه -إماما وحاكما يجب الأخذ برأيه وطاعة أوامره ـ لأحد أفراد رعيَّته من شيوخ القبائل ورؤسائها حفاظا على السلم ووحدة الصفِّ، وقضاءً على الفتن وإثارة الصراعات بين القبائل والأشخاص؛ فكان متسامحًا ومطواعًا ليِّن الجانب، حليمًا حكيمًا[2]. ويتجلَّى ذلك في المساعي الحثيثة للإمام خلال فترة حكمه في عقد مجالس الصلح بين القبائل المتنازعة، والقضاء على بؤر التوتُّر في المجتمع العُماني، وإزالة أسباب الفتن وإحلال السلم والأمان والاستقرار كلَّما وجد إلى ذلك سبيلا[3].

فكلَّما دُعي الإمام إلى مجلس صلح إلاَّ سارع وبادر واستجاب دون تردُّد، وكلَّما

---

١) المرجع نفسه، ص٢٦.

٢) الرواحي، سالم: الدعوة الإسلاميَّة في عُمان في القرن الرابع عشر الهجري، ص١٢٢-١٢٦.

٣) الخليلي، محمَّد: الإمام محمَّد بن عبد الله الخليليُّ ومنهجه الفقهيُّ، ص٢٥ - ٢٩.

عرضت عليه مسائل متعلِّقة بأمن بلده وإحلال السلم بين قبائله وأفراده إلاَّ وغلَّب فيها رأي الحكمة والعقل. ولعلَّ أهمَّ إنجاز يبرز فيه هذا الجانب من شخصيَّة الإمام الخليلي هو ما يعرف بـ"اتفاقيَّة السيب"، التي تمَّ إبرامها بعد فترة وجيزة من تولِّيه إمامة عُمان، وهي الاتِّفاقيَّة التاريخيَّة التي وقعت بين الإمامة بداخل عُمان والسلطنة على سواحلها، وأنهت الصراع الذي عطَّل مصالح الناس، وأزهق الأرواح، وفرَّق الشمل. لحق العُمانيِّين خيرٌ كثير بإبرام هذا الصلح، وإنهاء حالة الحرب والاقتتال، وإيقاف الصراع الدائر بين الإمامة والسلطنة لفترة طال أمدها، وكثر ضحاياها من أبناء الشعب العُماني.

مكَّنت هذه الاتِّفاقيَّة من استعادة الأمن في أرجاء البلاد، ونشر السلم، وانتعاش التجارة بتحرُّك الاقتصاد والزراعة والصناعة، فتنفَّس الناس الصعداء، وشعروا بنعمة العافية والأمن[١]. نظرا لأهمِّيَّة هذه الاتِّفاقيَّة نعرض محتواها وما تضمَّنته من بنود تخدم طرفي النزاع: الإمامة والسلطنة، ويعمُّ خيرها كافَّة الشعب العُماني في أرجاء بلاد عُمان:

- أن يكون كلُّ وارد من عُمان من جميع الأجناس إلى مسقط ومطرح وصور وسائر بلدان الساحل لا يؤخذ منه زيادة عن خمسة بالمائة.
- أن يكون لجميع العُمانيِّين الأمن والحرية في جميع بلدان الساحل.
- ترفع جميع التحجيرات على جميع الداخلين والخارجين في مسقط ومطرح وجميع بلدان الساحل.
- ألا تأوي حكومة السلطان مذنبا يهرب من إنصاف العُمانيِّين، وأن ترجعه إليهم إذا طلبوه منها، وألا تتدخَّل في داخليَّتهم.
- تعدُّ هذه الشروط المذكورة في أعلاه لصالح الإمامة، واعترافا باستقلالها، أمَّا الشروط التي لصالح السلطان فهي:
- كلُّ القبائل والمشايخ يلتزمون بالأمن والصلح مع حكومة السلطان، وألا يهاجموا بلاد الساحل، ولا يتدخَّلوا في حكومته.

١) غباش، حسين: عُمان، الديمقراطية الإسلاميَّة، ص٢٩٢-٢٩٥.

- كلُّ المسافرين إلى عُمان في مشاغلهم الجائزة والأموال التجاريَّة يكونون أحرارًا، ولا تكون تحجيرات على تجارتهم ولهم الأمن.
- كلُّ محدث ومذنب يهرب إليهم يطردونه ولا يأوونه.
- أن تكون دعاوى التجَّار وغيرهم من العُمانيِّين تسمع وتفصل على موجب ما هو الإنصاف بالحكم الشرعيِّ[1].

إنَّ هذه الخصال الرفيعة التي تميَّز بها الإمام الخليليُّ في جمع الكلمة والجنوح إلى السلم كان وراءها خير عميم، أحسَّ به ولمسه كلُّ أفراد الشعب العُماني؛ وبالذات في أهمِّ جانب من الحياة، هو الأمن والسلم والاستقرار، فاستطاع الناس أن يهنؤوا بحياة مريحة، ويتفرَّغوا لمزاولة مختلف أعمالهم في التجارة والزراعة والصناعة والأسفار، ويعمروا الأرض بالخير والصلاح.

القوة والحزم في نشر الخير ومحاربة الباطل:

من الجوانب البارزة التي امتازت بها شخصيَّة الإمام الخليلي: الجمع والاتِّزان بين الحِلم واللِّين والتواضع من جهة، والحزم والقوَّة والصرامة من جهة أخرى عندما يستدعي الأمر وتقضي المصلحة ذلك. إنَّ إدارة شؤون بلد وقيادة شعب ليس بالأمر الهيِّن في ظلِّ أوضاع اجتماعيَّة وسياسيَّة صعبة معقَّدة، إذ إنَّ الحفاظ على مصالح المسلمين، والحكم بالعدل بينهم، يقتضي في كثير من الأحيان الحزم والصرامة، لاسيما عندما يتعلَّق الأمر بانتهاك حرمات الله تعالى وحرمات العباد في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

لقد برز الإمام الخليلي آمرا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، فكان لا يخاف أحدًا غير الله تعالى عندما تُنتهك حرماته، وكان لا يتردَّد فيما يتَّخذه من مواقف وأعمال عندما يتعلَّق الأمر بنصرة الحقِّ ومحاربة الباطل، وملاحقة المجرمين والمفسدين والمعتدين[2].

لقد قاوم وحارب الإمام الخليليُّ في جبهة الانحراف الخلقيِّ، وأصدر تعليماته

١) الخليلي، محمَّد: الإمام محمَّد بن عبد الله الخليليُّ ومنهجه الفقهيُّ، ص٢٦ - ٢٩.
٢) الرواحي، سالم: الدعوة الإسلاميَّة في عُمان في القرن الرابع عشر الهجري، ص١٢٢-١٦٠.

الشديدة وأوامره الصارمة بملاحقة العصاة المجاهرين بذنوبهم وآثامهم، فعزَّر وسجن وغرَّم، وأقام حدود الله تعالى فيمن يستحقُّه منهم. وحارب مظاهر الشعوذة والكهانة والمتاجرة بالدين وعزَّر أصحابها ولاحقهم وهدَّدهم. وحارب قطَّاع الطرق واللصوص، وطبَّق عليهم الحدود وقضى على حركاتهم ونزواتهم المنحرفة. وحارب المجرمين الذين تسبَّبوا في عمليَّات قتل أو اغتصاب أو أذى للناس، فلاحقهم وقضى عليهم، وطبَّق فيهم أحكام الله تعالى[١].

استطاع الإمام الخليلي بهذا الحزم والشدَّة والصرامة مع أصناف المجرمين والمجاهرين بعصيانهم وقطَّاع الطرق أن يقطع دابر الجريمة في دولته، وأن يقلِّل من وطأتها على الناس، وأن يقيم العدل بينهم وفق شريعة الله تعالى. واستطاع -كذلك- أن يوفِّر الأمن والطمأنينة في النفوس، فأصبح الناس بإمكانهم السفر وقطع الفيافي دون خوف على أنفسهم أو أعراضهم أو أموالهم. كما انحسر العمل الإجرامي بمختلف صوره، وساد العدل والأمن.

خاتمة:

يخلص البحث إلى النتائج الآتية:

- الإمام الخليلي شخصيَّة عُمانيَّة وطنيَّة، وعَلَم بارز من أعلامها، يجسِّد أبعاد الهوِّيَّة العربيَّة الإسلاميَّة.

- بروز شخصيَّة الإمام الخليلي في التاريخ المعاصر لعُمان، بوصفها أنموذجا للحكم الراشد فيه، الجامع للكلمة، والداعي للوحدة، والمصلح بين الإخوة، والقاضي على الفتن.

- دعائم الحكم الراشد متمثِّلة أساسا في الاستقامة على نهج الله تعالى، وإقامة العدل في الرعيَّة، ونشر السلم والأمن في أرجاء الوطن، وإحلال الفضيلة والصلاح، ومحاربة الباطل والمنكر. والتفاني في خدمة أبناء الشعب، وكلُّ هذه الأمور عاش لأجلها الإمام الخليلي، وجسَّدها قولاً وفعلاً.

- العلاقة الوثيقة المطَّردة بين صلاح الراعي وصلاح الرعيَّة، إذ إنَّ الرعيَّة تقتدي

١) الخليلي، محمَّد: الإمام محمَّد بن عبد الله الخليليُّ ومنهجه الفقهيُّ، ص١٦ - ٢٠.

براعيها الصالح، فتحبَّه وتتعاون معه، وتقدر أعماله، وتطيع أوامره، وتطمئنَّ لعمَّاله، فتنتج عن ذلك الخير العميم للبلاد والعباد، وهذا الذي تجسَّد عمليًّا في عهد حكم الإمام الخليلي.

- علاقة صلاح الحكم بانتعاش الحياة الاقتصاديَّة، وتحرُّك دواليب التجارة والأعمال، وتوفُّر فرص العمل، ورخاء المعيشة، ذلك أنَّ الحاكم الصالح يحرص على محاربة الفساد المالي، ويعمل على استتباب الأمن، وينشر العدل، ويحرص على قضاء مصالح المسلمين؛ وكلُّ هذه الأمور لها أثرها المباشر والفعَّال في انتعاش الجانب الاقتصاديِّ في البلد، وهذا الذي وقع فعلا في عهد حكم الإمام الخليلي، وسجَّله المؤرِّخون لعصره.

- أهمِّيَّة اجتماع الأخلاق والعلم والحكمة في شخصيَّة الحاكم، فهي من دعائم حكمه ونجاحه في تسيير دواليب الدولة، ورعاية مصالح بلده، وقيادته إلى برِّ الأمان وشاطئ السلام. وهذا الذي تحلَّى به الإمام الخليلي، وضرب أروع الأمثلة فيه، وكان من أقوى ركائز حكمه الراشد.

وبناء على النتائج السابقة توصي الدراسة بما يأتي:

- دعوة المؤسَّسات التعليميَّة والتربويَّة العُمانيَّة بمختلف أطوارها لتدريس حياة الإمام الخليلي وشخصيَّته. وتضمين المقرَّرات الدراسيَّة نماذج من أعماله ومواقفه.

- توجيه طلبة الجامعات العُمانيَّة للبحث في الجوانب المختلفة من شخصيَّة الإمام الخليلي.

- العناية بجمع تراث الإمام الخليلي وطبع الأعمال الكاملة له.

- العناية بإنجاز أعمال مصوَّرة عن شخصيَّة الإمام الخليلي: أشرطة وثائقيَّة، أفلام...

- تسمية مرافق علميَّة وحكوميَّة بشخصيَّة الإمام الخليلي.

- أن يتضمن المتحف الوطنيِّ جوانب تعريفية بأعلام عمان ومنهم الإمام الخليلي.

المصادر والمراجع:

- الخليلي، محمَّد بن أحمد: الإمام محمَّد بن عبد الله الخليليُّ ومنهجه الفقهيُّ، مذكِّرة تخرُّج بمعهد القضاء الشرعي، مسقط، سلطنة عُمان، السنة الجامعية: ٢٠٠٢-٢٠٠٣م.
- الرواحي، سالم بن محمَّد: الدعوة الإسلاميَّة في عُمان في القرن الرابع عشر الهجري، ط١، مكتبة الضامري للنشر، مسقط، سلطنة عُمان، ١٤٣٦هـ/٢٠١٠م.
- السالمي، أبو بشير محمَّد الشيبة بن نور الدين: نهضة الأعيان بحرِّيَّة عُمان، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ١٩٦٠م.
- السرحني، إسماعيل بن إبراهيم بن سعيد: قلائد المرجان في ذكر السيرة العطرة لأئمَّة عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، سلطنة عُمان، ١٩٩١م.
- شريفي، مصطفى بن محمَّد: الشيخ نور الدين السالمي مجدِّد أمَّة ومحيى إمامة، ط١، المطبعة العربيَّة، غرداية، دار الخلدونيَّة، الجزائر، جمعية التراث، غرداية، الجزائر، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- الشكيلي، إبراهيم بن محمَّد: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وأثرها في نشر العلم، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- غباش، حسين عبيد غانم: عُمان، الديمقراطيَّة الإسلاميَّة، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث، ط١، دار الجديد، ١٩٩٧م.
- مركز دراسات الوحدة العربيَّة: موسوعة عُمان الوثائق السريَّة، إعداد وترجمة: محمَّد بن عبد الله الحارثي، مج٣، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م.
- ونس جورج: عُمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي، مكتبة الثقافة الدينيَّة، ط١، القاهرة، مصر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.